تدمر في عمارة وعمران القرون الميلادية الأولى*

سليم عبد الحق

المدير الأسبق للآثار والمتاحف ـ دمشق ـ سورية

اندريه عبد الحق

الأمينة السابقة في متحف باريس ـ فرنسا

العمارة التدمرية:

شبه أحد المؤرخين المشهورين العمران خلال الأزمنة القديمة بهرم قاعدته الديانة التي تحمل البناء كله، ثم تأتي الاعتبارات العملية، ثم يأتي الفن. واعتقد أن هذا الرأي يشمل العمران في تدمر وأن العمارة التدمرية لاتخرج عنه، لذلك فإنني آخذ به، واسمح لنفسي أن أقسّم بحثي فيما يلي إلى:

١ـ الديانة التدمرية

٢ـ الاعتبارات العملية

٣ـ البديع العمراني

١ـ الديانة التدمرية:

تتألف المعتقدات الدينية التدمرية من الأفكار الدينية التي كانت سائدة في سورية وبلاد الرافدين وشبه جزيرة العرب، لذلك فإنه لم يعثر خلال الحفائر التدمرية المتعددة على أي معبد مخصص لإله من الآلهة الاغريقية ـ الرومانية ولا إلى أي امبراطور، ولا لأي إله كانت تعبده الفرق العسكرية الرومانية. وذلك لأن التدمريين القدماء عبدوا آلهتهم الخاصة دون غيرها، وفي معابد عديدة. وزّعوها في أطراف مدينة تدمر لحمايتها من كل أذى، وزودوها بأبنية حجرية جسيمة، ومنحوها الأولوية التامة، على بقية منشآتهم المدنية الأخرى وعلى منازلهم الخاصة، وبدأوا العمل منذ النصف الثاني منذ القرن الأول قبل الميلاد، وأنهوها نحو منتصف القرن الثاني بعد الميلاد.

وأكبر معبد تدمري على الاطلاق مخصص للإله (بل) وهو من منشأ بابلي. وأشرك معه (يرحيبول) وهو إله شمسي ورب نبع أفقا و(عجليبول) وهو إله قمري. وقد بني هذا المعبد في شرقي المدينة غير بعيد عن واحة النخيل، ووجّه شرقاً ـ غرباً وشمالاً ـ جنوباً بدقة هندسية تامة، ويحتمل أن القبائل التدمرية الرئيسية الأربع (بنو كمرا وبنوميتابول وبنو المعازين والميتون) أسهمت في نفقات البناء، ذاكرة التحالف المعقود بينها لدى اتفاقها على تشييد تدمر.

وتوجب على مخطط معبد (بل) أن يمكن من اقامة الطقوس الدينية العربية الجاهلية ابتداءاً من تأليف المواكب التي تحمل الأصنام، ويتقدمها ممثلو القبائل على نظام خاص والكهنة والنسوة الهازجة، ثم الطواف حول المكان المقدس، فتقديم الأضاحي، ثم الصعود على منحدر إلى الحرم، ثم الوصول إلى سقف الحرم، واحراق البخور في المحارق حيث ينزل الإله من السماء ويقترب من عباده. مما يذكر بما كان يمثل معتقدات سكان بلاد الرافدين لدى اقامتهم الزقورات.

ويعني كل ذلك بلغة العمارة تنظيم بوابة المعبد الخارجية بأبهة، وتسوية باحة فسيحة الأرجاء للطواف، فيها حوض ماء للتطهير، ومذبح لنحر

الأضاحي وقاعة للمآدب الدينية، وخاصة حرم يحوي محرابين جنوبي وشمالي وثلاثة أدراج للصعود إلى السقف ولتقديم البخور ويتوجب أخيراً احاطة الباحة الفسيحة بأروقة تمكن الناس من حمايتهم ضد الأعراض الطبيعية.

ويظهر أن عمليات البناء بدأت منذ النصف الثاني من القرن الأول ق.م وأنها كانت مصممة ومدرجة ضمن مخطط عام جرى تنفيذه بدقة واندماج كلي في البيئة التدمرية الطبيعية من قبل المهندسين التدمريين الذين ابتكروا الحجوم والأشكال المعمارية التي تصلح للتعبير عن تقاليد القبائل التدمرية بلغة العمارة المعاصرة المتطورة ووفق متطلبات المستقبل. ومن الطبيعي أن الأعمال المذكورة بدأت ببناء الحرم الذي يشبه حرم المعابد الهلنستية المحاطة بـ ١٥×٨ عموداً. وبلغ ارتفاع الأعمدة التدمرية المخددة ١٥ متراً وكانت مزينة بتيجان كورنثية معدنية مذهبة. وأجمل مافي الحرم التجويفان (التالاموس) الجنوبي والشمالي المتقابلان اللذان تزينهما مواضيع ميثولوجية وزخرفية من أبدع وأثمن ماصاغه النحاتون في بداية القرن الأول الميلادي.

ولزم أن تسوى أرضية باحة (التيمنوس) حول الحرم من جهاته الثلاث الشمالية والشرقية والجنوبية وذلك لكي تقام أروقة المعبد على تخطيط شبه منحرف ٢١٠م×٢٠٥م. وهذه الأروقة مزدوجة في الأضلاع الشمالي والشرقي والجنوبي ويبلغ ارتفاع أعمدتها ١٢ متراً. أما الضلع الغربي فرواقه منفرد إلا أن أعمدته يبلغ ارتفاعها ١٧ متراً.

ومن اللازم أن يعرف أن الأروقة في العهد الهلنستي كانت مخصصة فقط لإحاطة (الآغورا) الساحة العامة ثم شملت وظيفتها احاطة الشوارع التي كانت صالحة لتنظيم المواكب. ومعنى قيامها حول (التيمنوس) في معبد (بل) أنه اكتسب وظيفة أخرى تستهدف اجتماع الجماهير وبقائهم فيه لغايات أخرى تقتضيها حياتهم اليومية. والتطور المذكور مهم جداً في حياة المعابد لانه يمكننا من التأثير المستمر على تعلق المتعبدين بها.

وتمكن الأثري دانيال شلومبرجيه بعد دراسة تيجان معبد (بل) الكورنثية ومقابلتها بما يماثلها بالمباني التدمرية الأخرى وكذلك بعد دراسة الكتابات التدمرية على أعمدة المعبد أن يقسم هذه التيجان إلى ثلاث مجموعات: تعود المجموعة الأولى منها إلى منتصف القرن الأول وهي التي تزين الرواق الشمالي، والمجموعة الثانية إلى نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني وهي تيجان الرواق الشرقي والرواق الجنوبي، والمجموعة الثالثة إلى منتصف القرن الثاني وهي التي تختص بالرواق الغربي وبوابة المعبد.

وكان انتهاء الأعمال في معبد (بل) حدثاً معمارياً هاماً جداً في منتصف القرن الثاني لاشاعته التاج الكورنثي خلال القرنين الأول والثاني في كل المباني السورية ولتقديمه معبد (بل) كمثل يحتذى على صعيد العمارة الدينية المحلية في تدمر، وعلى صعيد العمارة الدينية والاقليمية في الشرق السوري.

وفي الواقع انتصر التاج الكورنثي الكلاسيكي أخيراً على منافسيه التيجان الأيونية والطوسكانية والنبطية، وأشكال التيجان الكورنثية الابتدائية الأخرى، وعمت أشكال التاج المذكور المباني الرومانية في الأقطار الآسيوية والافريقية والاوروبية. وكان لسورية الفضل الأكبر في هذا الانتصار وتعميمه، ونقله عبر القرون حتى عصرنا الحاضر.

أما تأثير معبد (بل) في تدمر فكان واضحاً في تجديد عمارات المعابد الأخرى وفي تزيينها واضافة محاريب تزيينة في حرمها، واحاطة مبانيها بأروقة وتمكين جماهير المتعبدين من التجمع تحت ظلالها، وتوسيع امكاناتها في تنظيم المواكب الدينية.

ومن ذلك أن معبد الربة العربية (اللات) الذي بني في المنطقة الغربية من تدمر ويعود عهد بنائه الأول إلى قبل الميلاد، جدد مبنى حرمه خلال سنوات ١٤٨-١٨٨م، وزوّد محرابه بظلة لحماية تمثال الربة، وأضيف إلى مدخله بوابة جميلة وأحيط بأروقة تعتمد على أعمدة كورنثية، وإن معبد (بلحمون) الرب الفينيقي أضيف إلى المعابد التدمرية في سنة ٨٩ في أقصى جنوبي تدمر على جبل المنطار. وبني معبد

(بعلشمين) وكان يمثل الإله (حدد) إله العاصفة والمطر الذي كان يعبد في سورية. وقد ابتنته قبيلة المعازين بانية معبد اللات وذلك شمالي تدمر وفي بداية القرن الأول، وكان حرمه شبيهاً بحرم اللات، وقد زوّد بباحة شمالية على شكل شبه منجرف وذلك سنة ٦٧. واستبدل حرمه بحرم جديد سنتي ١٣٠-١٣١، وزوّد بمحراب مستدير وزين بأغصان الكرم، وجعلت وراء الحرم قاعة للمآدب الدينية، وأخيراً مدّد رواقه الأوسط برواق جنوبي على شكل شبه منحرف وذلك سنة ١٤٩.

ويقع معبد (نبو) إله الحظ والحكمة جنوبي قوس الظفر وغربي معبد (بل). وقد كشفت عنه المديرية العامة للآثار والمتاحف سنتي ١٩٦٣-١٩٦٤، وكلفت د. عدنان البني بدراسته وتبين أن قبيلتي بلشوري وايلابيل كلفتا ببنائه خلال سنوات (٨٠-١٨٠). ويختص مخططه أنه أيضاً على شكل شبه منحرف (٤٠م جنوباً ×١٠٠م شمالاً ×٨٥م شرقاً ×٨٦ غرباً)، وحجومه شبيهة بحجوم جاره معبد (بل) وتتقدمه بوابة بشكل شبه منحرف أيضاً. أما باحته فتحيط بها جنوباً وشرقاً وغرباً أعمدة على جذوعها حمائل لعرض التماثيل.

ويقوم حرم معبد (نبو) على بوديوم، وهو موجّه من الجنوب إلى الشمال، وفي صدره (اديتون) المحراب المقدس الذي يحيط به من الشرق والغرب غرفتان على شاكلة (التالاموس) الشمالي من حرم معبد (بل).

وتأثير معبد (بل) التدمري على معابد المدن السورية الأخرى عظيم جداً، ويتجلى باللجوء إلى انشاء مجموعة دينية معمارية ضخمة تتألف من البوابة التي تتصدر سطوحاً مدرجة ومتعالية بعضها فوق بعض، ويحيط بكل منها أروقة قائمة على عمد تيجانها كورنثية، وتتضمن أحياناً متاجر تزدحم بالزبائن، وتصلح لاجتماع الناس في غايات شتى. أما الحرم في هذه المعابد فيقوم شأنه في كل المعابد الرومانية على (بوديوم) وتتصدر داخله نفس التجويف المقدس (تالاموس). ونذكر عن هذه المجموعة أمثلة:

يتألف (الارتيميزيون) معبد الربة ارتميس (اغرتاتيس) عند الكنعانيين، في (جيرازا) جرش من بوابة بثلاث فتحات لرواق محمول على عدد من الأعمدة الكورنثية، ودرج يصعد حتى ١٠ أمتار، وباحة ذلت شكل شبيه بالمنحرف ببعدين ١٠٠م×٧٠م، ثم من ثلاثة أدراج أخرى في كل منها سبع درجات تؤدي إلى الباحة الحقيقية المقدسة (التيمنوس) (١٦١م×١٢١م)، المحاطة بأروقة نظمت تحتها الحوانيت. ووسط (التيمنوس) يقوم الحرم على بوديوم وتتصدره ستة أعمدة كورنثية رشيقة. وفي صدر الحرم مايشبه (التالاموس) الشمالي في معبد (بل). وثاني المعابد السورية الكبرى ذات الحجوم الضخمة معبد جوبيتر في دمشق. وكان هذا المعبد مخصصاً بـ(حدد) رب العاصفة والمطر. وهو يشغل مساحة ذات شكل شبيه بالمنحرف ببعدين ٣٨٠م×٣١٠م، ويبلغ طول أضلاعه الداخلية ١٢٠٠م، ويحد خارجه من الجهة الغربية صفان من الدكاكين التي تتابع في طرفيه الجنوبي والشمالي مؤلفة سوقاً واسعة، وفي طرفه الغربي بوابة واسعة وكذلك في طرفه الشرقي وهي البوابة الرئيسية المقابلة للآغورا.

ويعود البدء في أعمال بنائه إلى عهد الامبراطورين سبتيم سيفير وكركالا والانتهاء منه إلى منتصف القرن الثالث بعد عهد الامبراطور فيليب العربي.

وأخيراً يمثل معبد جوبيتر (خدد الكنعاني) في بعلبك القمة التي بلغتها العمارة الدينية السورية الضخمة. ويبدأ بالبوابة ذات ١٤عموداً التي بناها سبتيم سيفير، ويتقدمها درج ذو٤٢درجة. ثم باحة سداسية (كان يمكن أن يكون شكلها شبه منحرف) ضلعه ٦٠متراً، وباني هذا الشكل السداسي فيليب العربي، فباحة ثانية (تيمنوس) (١١٣م×١٣٥م) بأروقة شمالي وشرقي وجنوبي تتتابع تحتها القاعات المستطيلة ذات الأعمدة والمحاريب المزينة بمواضيع زخرفية سورية رومانية.

وأخيراً يأتي الحرم على (بوديوم) ارتفاعه ١٤م، وهو محاط من خارجه بأعمدة ١٠×١٩ بقي منها قائمة (٦) أعمدة، وداخله مزين بزخارف غنية جداً وفي صدره (الاديتون) التقليدي.

٢ـ الاعتبارات العملية :

منح التدمريون الأولوية من اهتمامهم إلى اعمار معابدهم الدينية بالحجر وأوشكوا على انهائها عندما زار الامبراطور هادريان مدينتهم وأطلق عليها اسم : « هادريانا المدينة الحرة » سنة ١٢٩م .

وكان ذلك يعني أحد الأسباب التي تبرر اتخاذ برنامج عمراني في غاية توسيع المدينة[١] مما أدى بالتدمريين إلى توجيه اهتمامهم أيضاً إلى بناء عماراتهم المدنية ومنازلهم الخاصة بالحجر، ويجب أن نذكر لكي نتفهم المخطط الجديد الذي اتخذ آنئذ، أن استيطان أرض تدمر جرى في أقدم الأزمان حول محورين بـ ١) نبع المياه العذبة غرباً، و ٢) نبع أفقا قرب جبل المنطار شرقاً.

ويذكر أيضاً أن أقدم معبد للربة اللات كان أقيم في المنطقة الغربية التدمرية بواسطة قبيلة المعازين، ويظهر أن البرنامج العمراني الجديد شمل شق شارع عريض جداً وجه من الجنوب إلى الشمال بدلاً من مسلك قديم كانت تسير عليه القوافل القادمة من حمص ودمشق عن طريق وادي القبور في طريقها إلى الفرات أو إلى الخليج العربي.

ويبلغ طول هذا الشارع المستعرض ٢٣٠٠م وعرضه ٢١م. ويحده من كل من طرفيه الشرقي والغربي رواق، ويبدأ جنوباً بباب دمشق ذي الفتحات الثلاث وتمتد مساحة بيضوية وراءه تعرف باسم الفوروم البيضوي، ويشبه هذا الفوروم فوروم جيرازا (جرش) الذي يقع في نهاية (كاردو) المدينة ويشرف على معبد زوس وتنتهي به طريق صحراوية في اتجاه مدينة البتراء. والمعتقد أن الفوروم البيضوي التدمري أقدم من فوروم جرش ومتقدم عليه.

وتبين أن للشارع المستعرض التدمري من الكتابات التي وجدت على أعمدته وظيفتين: تجارية تؤيدها الحوانيت العشرون الممتدة شرقي الفوروم ومن بداية الشارع، ودينية من الكتابات المهداة إلى الآلهة شمس واللات ورحم. مما يجعل الباحثين يعتقدون أن القوافل القادمة من بلاد الشام كانت تنظم مواكب دينية تتجه إلى معبد اللات لكي تسترحم حماية الربة قبل ازماعها على اجتياز بادية الشام.

ولما كانت منطقة السكن الغربية محددة بالمدافن والمرتفعات الصخرية لذلك فإن سكانها من أفراد قبيلة المعازين، لم يجدوا لتوسيع مساكنهم إلا الاتجاه شرقاً. ولما كانوا مضطرين إلى البقاء بسبب نبع المياه العذبة، فقد فكروا بجر مياه هذا النبع بواسطة قناة تحت الأرض. وقد أبانت الصور الجوية المؤيدة بأعمال الأسبار أن تخطيطاً اتخذ لرسم جزيرات عشر بأطوال مختلفة وموازية للشارع المستعرض أي أنها موجهة شمالاً ـ جنوباً وتفصل بينها طرقات عرضها ٤,٥م. وتكمل هذه الجزيرات جنوباً جزيرات خمس أخرى لها تقريباً نفس الاتجاه إلا أنها أعرض من الجزيرات الأولى. والمعتقد أن كل الجزيرات خططت نحو منتصف القرن الثاني بعد تعبيد الشارع المستعرض وقبل تخطيط الشارع الرئيسي.

والمنطقة التدمرية الثانية التي زرعت فيها مبان حجرية نحو عهد هادريان تقع شرقاً في نقطة ملتقى القوافل القادمة من الشرق بالقوافل القادمة من بلاد الشام في الوادي المحاذي لجبل المنطار. وهي المكان الذي شيدت فيه (الأغورا) الساحة العامة وملحقها مستودع البضائع.

وكانت الأغورات في المدن الهلنستية تحاط بالمعابد. إلا أن (أغورا) تدمر ليس يجاورها إلا معبد واحد هو معبد (أرصو) الذي اكتشف حديثاً. وهي من النموذج الأيوني أي نموذج أغورات مدن مانيزيا ودمشق ودورا أوربوس. ويحدها أربعة أروقة على شكل مستطيل (٨٤م×٧١م)، وكان فيها نحو ٢٠٠ تمثال مرتكزة على أعمدتها وتمثل أعضاء مجلس شيوخ تدمر وقواد فرقها العسكرية وموظفيها الكبار وآمري قوافلها خلال القرن الثاني.

وكانت تتبادل البضائع في (أغورا) تدمر. ويضاف إلى وظيفتها التجارية وظيفة سياسية واجتماعية، وكذلك استبقت وظيفتها الدينية القديمة حيث احتفظت في جنوبها الغربي بقاعة المآدب الدينية. أما ملحقها مستودع البضائع فانه يتبع اتجاهها، وليست فيه أروقة وهو غير مبلط. ويتصل بالآغورا عن طريق

أبواب ثلاثة. ويظهر أن وظيفته الرئيسية أنه المكان الذي تؤدي فيه المكوس المفروضة على البضائع الواردة إلى تدمر والصادرة منها حيث وجدت قرب بابه الرئيسي التعرفة الجمركية التي أخذها أمير روسي من تدمر في آخر القرن التاسع عشر. وهي محفوظة في متحف الارميتاج حالياً في مدينة سان بطرسبورغ. ومن المستحسن أن يعاد هذا الأثر إلى تدمر.

ويقع مبنى مجلس الشيوخ شمال الآغورا وملحقها هو الثالث في هذه المجموعة وقد بني أيضاً على نفس المحور وهو مكان مدرج يستوعب ٣٠ شيخاً، وتتقدمه باحة ذات عمد.

ولا أماشي من يعتقد أن القسم الغربي من الشارع الرئيسي يعود أيضاً إلى زمن هادريان وذلك لأن هذا القسم صمم ودون شك مع القسم الأوسط والقسم الشرقي من نفس الشارع. وهما من عهد السلالة الامبراطورية السيفيرية. ومن جهة أخرى ماكان بالإمكان أن يوجد هذا القسم الغربي قبل نشوء حي الجزيرات.

وقد ابتغى التدمريون من شق الشارع الرئيسي أن يكون في مدينتهم شارع شبيه بـ(كاردو) جيرازا (جرش) أو الشارع المستقيم (فياريكتا) في دمشق، أو الشارع الرئيسي في أفاميا، وكل هذه المدن مدن قوافل، وكذلك كانوا يأملون من العمليات اللازم اجراؤها أن تتوفر لهم أمكنة تصلح ليبنى عليها عدد آخر من المباني المدنية التي لاتوجد بعد في مدينتهم. وأخيراً كانوا يستهدفون منها أن تصل معابدهم الرئيسية بعضها ببعض وأن تصلح لسد حاجات تجارتهم الدولية المتزايدة.

وشبه أحد المؤلفين المعاصرين هذه العملية العمرانية بالعملية التي قام بها (هوسمان) عمدة باريس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأدت إلى شق أشهر الشوارع الباريسية. وقد امتدت العملية التدمرية على مسافة ١٢٠٠م، وشملت ثلاثة أقسام:

القسم (ا):

يبدأ من الساحة المسواة شمالي الشارع المستعرض، ويتجه تقريباً غرباً جنوباً على مسافة قدرها (٦٠٠م) حتي ساحة بيضوية فيها مبنى (التترابيل) الذي أعادت المديرية العامة للآثار والمتاحف بناءه اعتباراً من عام ١٩٦٤. وتشير الكتابات التدمرية على أعمدة رواقي هذا القسم إلى تواريخ (١٥٢، ١٩٣، ٢١١). والغاية من تنظيمه تجارية ويدل على ذلك الحوانيت الستة القائمة شمالي الساحة البيضوية. ويتفرع من جنوبي الساحة المذكورة شارع منحرف يتجه نحو معبد الإله (أرصو).

القسم (ب):

يغير اتجاهه قليلاً بعد الساحة البيضوية نحو الجنوب الشرقي ممتداً على مسافة قدرها (٣٠٠م) وينتهي بقوس الظفر (التريبيلون). ويحده رواقان قائمان على أعمدة كورنثية محددة ارتفاعها (١٧م). ويبلغ عرضه ٢٥م خصص للشوصة منها (١١م) وهي غير معبدة لكي لاتتأذى منها قوائم الجمال التي تسير عليها، ولكل رصيف (٧م) تحت كل رواق. ويتفرع من بداية هذا القسم شارع متوسط يؤدي إلى معبد بعلشمين، كما يتفرع من جنوبه فرع يقود إلى مبنى (السيزاريوم) وعلى حد القسم الأوسط الجنوبي يقوم مسرح المدينة، وهو أجمل المسارح الرومانية في سورية وقد بنيت منصة التمثيل فيه على محور مواز إلى محور السيزاريوم، وهي متصلة بالشارع الرئيسي بواسطة ثلاثة أبواب. أما المدرج نصف المستدير الذي يجلس عليه المتفرجون فيحوي ١٢ درجة ومدخلين جانبيين. وأخيراً يقع شرقي المسرح بناء بنفس المحور يظن أنه كان قصراً لأحد سادات تدمر.

ويلاحظ أن مجموعة الآغورا المعمارية ليس لها محور مجموعة المسرح، ولكي ينسق بين المجموعتين حمل المهندسون التدمريون على ايجاد ساحة نصف دائرية حول المسرح وأقاموا في أطرافها رواقاً باعمدة، ثم شقوا شارعاً منحرفاً من وسط الساحة وجعلوا اتجاهه يتبع نفس محور الآغورا وأوصلوه إلى أحد أبراج المدينة الجنوبية. ويظن أن هذه الساحة الكبرى كانت تستخدم لتجمع المواكب الدينية التي تقصد معبد (بل) أو لتجهيز القوافل قبل مغادرتها المدينة أو لاستعراض من الفرق العسكرية التدمرية.

وفي شرقي القسم (ب) من الشارع الرئيسي يوجد معبد (نبو) وكان الخاسر الوحيد من العملية العمرانية الكبرى إذ اقتطع من شماله جزء هام. وقد عوض على كهنته بتمكينهم من بناء واستثمار صف من الدكاكين مفتوحة على الشارع الرئيسي. وهذه الدكاكين الأحد عشر تشبه (٢٣دكاناً) بنيت تحت الرواق الجنوبي و(٢٩دكاناً) بنيت تحت الرواق الشمالي مما أكسب القسم (ب) وظيفة سوق تجارية هامة لعرض وبيع البضائع المستوردة من الشرق والغرب.

ويقع شمالي (التريبيلون) حمامات ديوقليسيان بأقسامها: المشلح والبارد، والدافئ والساخن.

القسم (ج):

يتجه بعض الشيء إلى الجنوب نحو بوابة معبد (بل)، ويعود عهد بنائه إلى فاتحة القرن الثالث، ويعتقد أن انجازه توقف ولم ينه.

٣ـ البديع العمراني التدمري:

لا نعتقد أن البديع العمراني لتدمر كامل. إذ تنقصه عدة معالم. لأن الحفريات الأثرية التي جرت على كثرتها لم تؤد إلى الكشف عن كل المباني المعروفة في المدن السورية المعاصرة، كقاعة الاجتماع والمحاكم (البازليك) وقاعة الاستماع (الأوديون) والملعب (الجيمناز) وملعب السباق (الهيبودروم) ومسرح المصارعة والقتال (ضد الوحوش) (الامفيتياتر) وغيرها. ولعل السبب أن مثل هذه المباني لم توجد أصلاً في تدمر أو أنه لم يعثر عليها حتي يومنا هذا.

وكل الباحثين الذين عملوا في تدمر مدة طويلة يشعرون شعوراً خفياً أن هذه المنطقة الأثرية الفريدة مازالت تحتفظ بقسم وافر من أسرارها وأنها تهيئ كثيراً من المفاجئات للمستقبل.

والنتيجة أن العمران التدمري حقيقة من الحقائق المعقدة جداً، لأنه ليس هلنستياً ولارومانياً بل مزيجاً من العمرانين مع أصالة سائدة بوضوح مابعده وضوح يرجع السبب فيها إلى تأثير تدمر المدينة الصحراوية الواقعة على تخوم سورية الشرقية.

وقد أظهرت هذه المدينة كثيراً من المرونة لدى انصرافها لبناء مبانيها العامة الدينية والمدنية والخاصة، وذلك ازاء القواعد العمرانية العالمية التي احترمها كثير من المدن الأخرى. أما هي فكان يشوبها شيء من النقد نحوها لأنها اتخذت لبيئات غير بيئتها ولم تقبل أن تتخذ المخطط المتعامد على الطريقة الشطرنجية باتجاهان نحو الجهات الأصلية وتبعاً لمحاور للسير المميز على الطريقة الرومانية. إذ أنها لوفعلت ذلك كجارتها دورا أوربوس لنالها كثير من الأذى بسبب شدة الحرارة وهبوب الرياح العاتية والتضاريس الطبوغرافية. ثم لاضطرارها لأن تبقى ملتصقة بواحتها وألا تبتعد عنها ـ وتفسر كل هذه الأسباب أن محاور مبانيها كانت كثيرة. ولايشكل هذا عيباً لأن معظم المدن الاغريقيةـالرومانية تكثر فيها الاتجاهات العمرانية حتي في روما نفسها.

أما مايتعلق بالانتظام الهندسي الذي انتقد بعضهم فقدانه فيها فإن المهندسين التدمريين آثروا وفقاً للآراء التي شرحناها أن يجزئوا المناظير ويعالجوا على حدة كل جزء من الفراغ وذلك بتحديد النظر عن طريق تعديد المباني والعناصر الزخرفية. وهو مايؤلف باعتقادي أصالة العمران التدمري الأولى.

ونضرب مثلاً عن ذلك بالشارع الرئيسي إذ أن قطاعه (آ) ينتهي بمنظور المعبد الجنائزي، وقطاعه (جـ) ينتهي ببوابة معبد (بل)، أما الانحرافان اللذان وصفناهما فإن المهندسين التدمريين ابتكروا مبنيين أصليين في منتهى الجمال لتبريرهما. الأول (التيتراكيون) الذي يشبه (التيترابيل) في مدن جيرازا وأفاميا واللاذقية وانطاكية الا أنه يتألف من أربعة زوايا في كل منها أربعة أعمدة في وسطها تمثال. والثاني قوس الظفر (التريبيلون) ذو الواجهتين لمقابلة اتجاهين منحرفين. ولاأعرف مثيلاً له الا في مدينة جيرازا يتجلى في قوس الظفر لهادريان، وفي مدينة لبتيس ماغنا الطرابلسية خلال مجموعة الفوروم والبازليك من عهد سبتيم سيفير. والمثلان المذكوران يقلان جمالاً عن المثل التدمري.

وتتعدد المواضيع الزخرفية الأخرى في الشارع الرئيسي. كسقايات ثلاث في بدايات القطاعات (آ) و(ب) و(ج) وكل منها يتألف من بناء نصف

مستدير يحيط به محرابان وأمامه أربعة أعمدة ويضاف إلى كل ذلك غابة من التيجان الكورنثية القائمة على مايزيد عن (٣٧٥) عموداً في كل من الرواقين الشمالي والجنوبي.

وكلمة الانتهاء أتركها للمؤرخ (فولني) الذي ذكر عن تدمر في القرن الثامن عشر « ويجب أن نعترف أن العصور القديمة لم تترك لافي بلاد اليونان ولا في ايطاليا ماتمتاز به أطلال تدمر من بهاء ».

الهوامش :

١- الأسباب التي تبرر توسيع المدينة واعمارها في العالم القديم ثلاثة: ١ . اذا أصبحت حرة، ٢ . اذا أصبحت حاضرة لمنطقة، ٣ . اذا توصل أحد مواطنيها الى ارتقاء العرش الأمبراطوري.

* راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الموجود بالقسم الأجنبي.